

محمد بن سعد

أعلام المؤرخين

obeikandi.com

محمد بن سعد وكتاب الطبقات^(١)

حقيقة إن المعلومات التي نحتاجها لنرسم منها صورة لسيرة محمد بن سعد في كتابه " الطبقات الكبرى " قليلة لا تفي بشيء، لأن محمد بن سعد بن منيع البصري الزهري المكنى بأبي عبد الله، يظهر لنا في كتابه " الطبقات الكبرى " في شخصية الراوية الذي لم يسمح لذاته وعلاقاته وأحواله بأن تدل على ما يرويه، أو أن تتدخل فيه، وإنه لمن المفارقات أن ترى الشخص الذي حفظ لنا الصفات الخلقية والخلقية وأدق المظاهر أحياناً عن حياة الأشخاص، لا يجد من يكتب عنه ترجمة واضحة.

نشأته:

فتقول التراجم التي جمعناها له أنه ولد سنة ١٦٨ هـ بالبصرة، فنسب إليها، وارتحل إلى بغداد وأقام فيها ملازماً لأستاذه الواقدي يكتب له، حتى عرف باسم " كاتب الواقدي ". وكانت له رحلة إلى المدينة والكوفة، ولا ريب في أن رحلته إلى المدينة تمت قبل سنة ٢٠٠ هـ، فهو يذكر أنه لقي فيها بعض الشيوخ عام ١٨٩ هـ كما أن أكثر الذين روى عنهم من أهلها أدركتهم المنية قبل مطلع القرن الثالث. وقد كان أحد أجداده مولى لبني هاشم، ولكن ابن سعد نفسه كان قد تحلل من عهدة الولاء، وفي نسبته أنه زهري، وهي نسبة غريبة بعدما صرحت الروايات بولاء أهله لبني هاشم.

(١) مصادر الترجمة: ابن النديم، الفهرست، ابن أبي حاتم، الجرح والتعديل رقم: ١٤٣٣، والخطيب البغدادي، تاريخ بغداد ٥ / ٣٢١، ابن خلكان، وفيات الأعيان رقم: ٦١٧، الصفدي، الوافي، ٣ / ٨٨ (رقم ١٠٠٩)، الذهبي، تذكرة الحفاظ، ابن حجر، تهذيب التهذيب، ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، الجزري، طبقات القراء ١ / ١٤٢.

رحلته العلمية:

لقد جاب ابن سعد الأقطار طلباً لعلم الحديث، وتفرغ لدراسته من منابعه الأصيلة، وكان شغله الشاغل هو لقاء الشيوخ وكتابة الحديث وجمع الكتب، ولذلك اتصل بأعلام عصره من المحدثين فروى عنهم وقيده مروياته، وأفاد منها في تصنيف كتبه حتى وصف بأنه كان كثير العلم، كثير الحديث والرواية، كثير الكتب.

ونستطيع أن نقول: إن محمد بن سعد كان على اتصال بأكبر رجال الحديث في عصره، سواء أكانوا شيوخاً أم تلامذة. ومن يطلع على الطبقات يجد له شيوخاً كثيرين منهم سفيان بن عيينة وأبو الوليد الطيالسي ومحمد بن سعدان الضرير ووكيع بن الجراح وسليمان بن حرب وهيثم والفضل بن دكين والوليد بن مسلم ومعن بن عيسى وعشرات غيرهم، ولو راجع القارئ تراجم هؤلاء الشيوخ في كتب الرجال، لوجد معظمهم ممن لا يشك في عدالته. وهذا ما يجعلنا نعتقد أن المادة التي نقلها ابن سعد قد وجهت بالنقد الضمني لأنه تحرى قبل نقلها أن تكون في الأكثر مأخوذة عن العدول الثقات. وهذا الموقف هو الذي كسب لابن سعد تقدير معاصريه ومن بعدهم، فكلهم تقريباً وثقه وأثنى عليه حتى قال فيه الخطيب: "محمد بن سعد عندنا من أهل العدالة وحديثه يدل على صدقه فإنه يتحرى في كثير من رواياته". وقال ابن خلكان: "كان صدوقاً ثقة" وقال ابن حجر: "أحد الحفاظ الكبار الثقات المتحررين" ووصفوه بالفضل والفهم والنبيل، وفضلوه على أستاذه الواقدي ضعيفاً.

ولم تقتصر ثقافة ابن سعد على الحديث والأخبار والسير بل إنه كتب الغريب والفقهاء، وربما دلت صلته بالنحويين واللغويين مثل أبي زيد الأنصاري على استكمالهما للنواحي اللغوية والنحوية، على نحو

واسع. أما صلته بمحمد بن سعدان الضرير وهو من مشهوري القراء فتدل على اهتمامه بالقراءات. وقد صرح ابن الجزري بأن ابن سعد روى الحروف عن محمد بن عمر الواقدي ثم رواها عنه الحارث بن أبي أسامة. وكان توفره على كتابة تراجم الرجال سبباً في اطلاعه الواسع على علم الأنساب، ويبدو من الطبقات أنه أحكم هذا الفرع إحكاماً جيداً بحيث تمكن فيه من المناقشة والترجيح، وعمدته في ذلك رواية أستاذه الواقدي، ورواية ابن إسحاق، ورواية ابن عمارة الأنصاري في نسب الأنصار، ورواية هشام بن محمد بن السائب الكلبي، وعن هذا الأخير روى ابن سعد كتابه "جمهرة الأنساب".

أما تلامذته فهم كثيرون أيضاً، ومنهم أحمد بن عبيد وابن أبي الدنيا والبلاذري والحارث بن أبي أسامة والحسين بن فهم وغيرهم.

مؤلفاته:

لم يتوقف نشاط ابن سعد عند تأليف كتاب "الطبقات"، وعلى سعة باعه في نواح علمية كثيرة فإن المصادر لم تذكر له من المؤلفات إلا كتابين آخرين - عدا الطبقات الكبير - وهما كتاب "الطبقات الصغير"، وهو مستخرج من المؤلف الأول، وكتاب "أخبار النبي" - وهو الكتاب الوحيد الذي ذكره ابن النديم - وربما لم يكن شيء سوى الجزأين الأولين من الطبقات الكبير، أي أن الكتب الثلاثة في حقيقتها كتاب واحد، وتسكت المصادر عما سوى ذلك من مؤلفات.

وفاته:

وتكاد المصادر تجمع على أن ابن سعد توفي يوم الأحد لأربع خلون من جمادى الآخرة سنة ٢٣٠هـ، بمدينة بغداد ودفن في مقبرة

باب الشام وهو يومئذ ابن اثنتين وستين سنة. وهذا الخبر منقول عن الحسين بن فهم أحد تلامذته الأذنين، وأحد اثنين روى كتاب الطبقات. ولكن ابن أبي حاتم يذكر أنه توفي سنة ست وثلاثين (يعني ومائتين) وقال الصفدي في الوافي أنه توفي سنة ٢٢٢ هـ على خلاف في ذلك. ويبدو أن رواية ابن فهم هي الصحيحة، فأما رواية الصفدي في الوافي فواضحة الخطأ لأن ابن سعد يورخ لأناس توفوا سنة ٢٢٨ هـ و٢٢٩ هـ وليس هناك ما يدل على أن ذلك مما زاده الرواة الذين نقلوا الكتاب. أما رواية ابن أبي حاتم فقد كتبت بالأرقام لا بالحروف وهي في شكلها الذي كتبت به لا تسلم من الخطأ.

وكتاب " الطبقات " معرض لنواح كثيرة من ثقافة وعلم ابن سعد، وهو عمل ضخم أراده أن يكون في خمسة عشر مجلداً، ليخدم به السنة أو علم الحديث، فتحدث فيه عن الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم والصحابة والتابعين إلى عصرهم مقتفياً خطى أستاذه الواقدي الذي ألف أيضاً كتاب " الطبقات "، وقد خصص ابن سعد أكثر الجزأين الأولين لسيرة الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم، ثم أضاف فصلاً عن الذين كانوا يفتنون بالمدينة على عهد الحبيب محمد صلي الله عليه وسلم، ثم أخذ يترجم في الأخير الذي خصصه للنساء. وقد راعى في التراجم عنصرين: عنصر الزمان وعنصر المكان - أما عنصر الزمان فقد تدخل في بناء الطبقات من أولها إلى آخرها، وكانت السابقة إلى الإسلام هي المحور الأكبر فيه، سواء اتصلت بالهجرة إلى الحبشة ثم بموقعة بدر أو وقتت بما قبل فتح مكة، أو غير ذلك من النقط الزمنية التي وجهت التقسيم في ذلك الكتاب. ومن ثم بدأ بالمهاجرين البدريين ثم بالأنصار البدريين ثم بمن أسلم قديماً ولم يشهد بدرأً وإنما هاجر إلى الحبشة أو شهد أحداً (فالبديون

مفضلون على من عداهم) ثم من أسلم قبل فتح مكة وهكذا. ونلاحظ في هذه القسمة أن ابن سعد احتذى فيها شيئاً شبيهاً بما صنعه عمر بن الخطاب عندما دون الدواوين. وبعد هذا تدخل العنصر المكاني فأخذ يترجم للصحابة ومن بعدهم على حسب الأمصار التي نزلوا فسمى من كان بالمدينة ومكة والطائف واليمن واليمامة، ثم من نزل الكوفة، ثم من نزل البصرة، ومن كان موطنه الشام ومصر وغيرهم. وفي أثناء هذا التقسيم التفت إلى التقسيمات المكانية، وبخاصة عند الحديث عن التابعين لأنه ترجم لهم في الطبقات، والطبقة في العادة تساوي جيلاً أو عشرين سنة أو عشر سنين، وهي تساوي في كتاب ابن سعد عشرين سنة تقريباً، فمثلاً تراوح نهاية الطبقة الثالثة بين سنتي ١٠٨ - ١١٣ وتراوح نهاية الطبقة الرابعة بين سنتي ١٢٦ - ١٣٢.

وقد أظهر هذا التقسيم عيباً واحداً في الكتاب إذ قد يكون أحد الأشخاص داخلاً في غير موضع واحد في هذا المنهج الكبير، أي قد يكون أحد الناس بدرياً، ممن يفتي أيام الرسول، ثم هاجر إلى مصر من الأمصار وعلى هذا فلا بد له من ثلاث تراجم، غير أن ابن سعد كان على وعي بهذا ولذلك ففي مثل هذه الأحوال تجده يطيل الترجمة في موطن واحد ويوجز في المواطن الأخرى. وهناك مظهر آخر لهذا التقسيم نتج من الاعتماد الكلي على الرواية وذلك هو أننا كلما ابتعدنا عن الطبقات الأولى التي تهم ابن سعد الرواية عنها من جميع النواحي، أخذت الترجمة تتضاءل وتقل قيمتها، وبدلاً من أن يكتب ابن سعد ترجمات مستفيضة لمن عاصرهم، نجده اكتفى في هذا بقولة موجزة وأفاض كثيراً في تراجم الصحابة وكبار التابعين وبلغ من الدقة حداً يجعل من كتابه وثيقة بالغة القيمة.

وقد اختلفت شخصية ابن سعد أو كادت وراء السند، وليس لابن سعد في الكتاب تعليقات كثيرة ولكن ما يوجد منها يدل على قدرة نقدية طيبة.

ويجب أن نذكر أن كتاب الطبقات من أوائل ما ألف في هذا الموضوع، وإننا لا نعلم كتاباً سبقه إلا طبقات الواقدي، وتذكر هذه الحقيقة يجعلنا ندرك قيمة الكتاب من حيث هو مصدر قديم ومن حيث هو أحد النماذج الأولى في موضوع "الرجال". حقاً إن التأليف في هذه الناحية كثر من بعده، وربما انقسم التأليف في الطبقات بعده قسمين، قسم خاص بالصحابة وقسم خاص بسائر رجال الحديث من بعدهم، ولكن أثر كتاب ابن سعد، سواء ذكر اسمه أو لم يذكر، قد ظهر في التأليف التي جاءت من بعد. فنحن نعلم أن الصلة بين ابن سعد والبلاذري مثلاً كانت وثيقة، وأن مادة ابن سعد قد تركت أثراً واضحاً في كتاب "فتوح البلدان"، وكتاب "أنساب الأشراف"، والثاني من هذين الكتابين صورة أخرى للتأليف في الطبقات. وفي كتاب ابن سعد فصول هي الأصل الذي احتذاه المؤلفون في "دلائل النبوة" كأبي نعيم والبيهقي وعنه نقل ابن منده في طبقاته، ويمكن أن تقارن أصول السند عنده بما عند أبي نعيم الأصفهاني في "حلية الأولياء" فإن المتن متشابه وطرق الإسناد هي نفس طرق ابن سعد، متجهة اتجاهاً آخر، على أيدي رواة آخرين. ومن الغريب أن ابن عبد البر القرطبي في "الاستيعاب" لا يذكر أنه اعتمد على طبقات ابن سعد ويقول أنه استمد من طبقات الواقدي نفسه عن طريق محمد بن سعد عن طريق إبراهيم بن موسى بن جميل (س ٣٠٠٠) وهذا الأخير أندلسي هاجر إلى المشرق وسمع ابن حنبل وابن أبي الدنيا وابن قتيبة وابن سعد نفسه. وتظل

شهرة ابن سعد بين الأندلسيين محدودة - بعكس طبقات الواقدي - حتى إن الكلاعي مؤلف "الاكتفاء" اعتمد على ابن إسحاق وموسى بن عقبة والواقدي ومصعب الزبيري ولم يذكر شيئاً عن ابن سعد وطبقاته. على أننا نجد أندلسياً متأخراً ينقل عنه وهو ابن أبي بكر (-) (٧٤١) في كتابه "التمهيد والبين في مقتل الشهيد عثمان"، وهو كتاب ما يزال مخطوطاً. وأغرب من هذا أمر المشاركة وبخاصة ابن الأثير مؤلف "أسد الغابة" فإنه اكتفى في كتابه هذا بالاعتماد على أربعة كتب هي: كتاب ابن منده وكتاب أبي نعيم وكتاب ابن عبد البر ثم تذييل الحافظ أبي موسى محمد بن أبي بكر ابن أبي عيسى الأصفهاني. وواضح من هذا أن كتاب ابن سعد يدخل في "أسد الغابة" دخولاً غير مباشر، ولكن إغفال ابن الأثير له أمر يستوقف النظر.

غير أن طبقات ابن سعد، مع ذلك كله، مصدر هام عند ابن عساكر في كتابه "تاريخ دمشق" ومصدر هام في "تاريخ الإسلام" للذهبي وفي "تجريد أسماء الصحابة" و"سير أعلام النبلاء" ومعتمد في "الإصابة" و"تهذيب التهذيب" لابن حجر. وينقل عنه ابن كثير في تاريخه ويصرح ابن تغري بردي بقوله: "ونقلنا عنه كثيراً في هذا الكتاب" - أي كتاب النجوم الزاهرة - وكذلك كان مرجعاً لمن كتبوا في السيرة من المتأخرين كالمقريزي في "إمتاع الأسماع"، ولكثير من الكتب في الرجال.

ومنذ سنة ١٩٠٣ عمل في نشر هذا الكتاب جماعة من العلماء الألمان فأشرف عليه سخاو وأعانه فيه هوروفنز ومنوخ وبروكلمان وشوالي ولبرت وميسنر وسترسنتين، وكان اعتمادهم على مخطوطات خمس وجدوها، فجاء عملهم في حدود الإمكانيات التي

توفرت لهم جيداً مضبوطاً دقيقاً. فأعادة طبع هذا الكتاب اليوم عمل هام ضروري، غايته تقريبه من أيدي الدارسين وتسهيل وصوله إليهم، ففي صفحاته كنز لا ينضب من المعرفة لمن شاء أن يدرس سيرة الرسول وحياة القرنين الأولين من تاريخ الإسلام، وهو المنبع الذي يمد الباحثين بموضوعات جديدة في كتابة السير والبحث عن طرق الإسناد وكيفية تدوين الحديث، ويعلمنا الشيء الكثير عن الأمور الاجتماعية المتصلة ب حياة البيت والسوق وأمور الزبي والطعام والشراب وعن جوانب من الأعمال والمهن والحياة التجارية، وعن كثير من النواحي الثقافية والأحكام الفقهية، والصراع بين السنة والأهواء، وعن عشرات من الموضوعات، كل ذلك في لغة سهلة مستوية جزلة، وفي اعتدال وقصد وموضوعية وتجرد لا يستطيعه إلا من كان مخلصاً، كابن سعد، يقدم الغاية العلمية على كل شيء آخر^(١).

* * *

(١) مقدمة تحقيق كتاب الطبقات الكبرى، للمحقق إحسان عباس، طبعة دار صادر ببيروت، محمد أحمد حامد الأزوري، منهج ابن سعد في نقد الرواة من خلال الطبقات الكبرى، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، ١٤١٧هـ.